

DOI: 10.54240/2318-012-003-005

إسهامات المهاجرين الأندلسيين في إثراء التراث الموسيقي بالفضاء المغاربي
**The contributions of Andalusian immigrants to
enriching the musical heritage of the Maghreb**

اسم ولقب المؤلف المرسل: أ.د. نور الدين كوسة- Nouredine Koussa صص 87-98
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ التعليم العالي- جامعة سطيف2- الجزائر.
البريد الإلكتروني: koussanouredine@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2022/06/01.. تاريخ المراجعة: 2022/07/15.. تاريخ القبول: 2022/09/11

الملخص: يروم هذا البحث إلى مُلازمة جانب من ضمن جوانب عديدة تتمظهر ضمنها بصمات الهجرة إلى المنطقة المغاربية؛ والتي تتعلق في المقام الأول بموضوع الموسيقى، وهذا بالتركيز على المهاجرين الأندلسيين، على اعتبار أنهم مثّلوا نموذجاً بارزاً في تاريخ الهجرات والحركات البشرية إلى المنطقة المغاربية، بفعل الإسهامات المتميزة التي نتجت عن تلك الهجرة في شتى المجالات: الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حيث يُعدُّ التراث الموسيقي من ضمن تلك المجالات.

كما يهدف هذا البحث أيضاً إلى مناقشة إشكالية تبلور التراث الموسيقي الأندلسي؛ وذلك من خلال استعراض السياقات التاريخية المُتشابكة بالأبعاد والعناصر الثقافية والاجتماعية التي أفضت إلى تشكّل الملامح العامة والجزئية التي أضحت سمة مُلازمة لهذا التراث الموسيقي، ورصد العوامل المباشرة وغير المباشرة التي ساهمت في انتشاره واكتساحه للمنطقة المغاربية، باعتباره جزء لا يتجزأ من الموروث الغنائي الذي أضحي مُتداولاً في الساحة الغنائية والموسيقية المغاربية بشكل لافت للانتباه، مع الأخذ بعين الاعتبار شرح الخصائص المُميّزة لهذا التراث الموسيقي، وما يحوزه من مضامين وعناصر ذات حمولة ثقافية ودينية.

الكلمات المفتاحية: الموسيقى؛ الهجرة؛ الأندلس؛ المجتمع؛ التراث؛ الانتشار؛ السياقات التاريخية؛ الثقافة؛ الألحان؛ المنطقة المغاربية.

Abstract: *This research aims to touch on one of the many aspects that show the imprints of migration to the Maghreb region- Which relates primarily to the issue of music, and this is by focusing on Andalusian immigrants, given that they represented a prominent model in the history of migrations and human movements to the Maghreb, due to the distinguished contributions that resulted from that migration in various social, economic and cultural fields, and is among those domains.*

This research also aims to discuss the problem of the crystallization of the Andalusian musical heritage, by reviewing the historical contexts intertwined with the dimensions and cultural and social elements that led to the formation of general and partial features that became an inherent feature of this musical heritage, and monitoring the direct and indirect factors that contributed to the spread of the region The Maghreb, as an integral part of the lyrical heritage that has become circulating in the Maghreb lyrical and musical scene is remarkable, taking into account the explanation of the distinctive characteristics of this musical heritage, and the contents and elements it possesses with cultural and religious meanings.

Keywords: Music- Immigration- Al-Andalus- Society- Heritage- Diffusion- Historical contexts- Acculturation- Melodies- Maghreb region.

المقدمة: تُعتبر الهجرات الأندلسية إلى المنطقة المغاربية واحدة من أهمّ الهجرات التي ترتبت عنها حركة ثقافية وتأثير في مختلف المجالات، وهو ما شكّل لنا دافعا للتفكير في بعض جزئيات هذا الموضوع الحيوي؛ إذ حفّزنا على الاشتغال على المجال الموسيقي بوجه خاص، كونه يُمثّل أحد أهم وأبرز التأثيرات التي نتجت عن تلك الهجرات، ممّا قادنا إلى بلورة الفكرة الأساسية التي يروم إليها هذا البحث، والغرض منها؛ رصد وتدقيق لجوانب ومجالات ذلك الإسهام الموسيقي وتوضيح لآثاره، من خلال تناول السياقات التاريخية والثقافية التي أدّت إلى انتقال هذا التراث الموسيقي إلى المنطقة المغاربية، بما يُفضي إلى مُلامسة وإبراز جوهر الإشكالية التي يتركز عليها هذا البحث؛ ومنها يستمد عنوانه الموسوم بـ"إسهامات المهاجرين الأندلسيين في إثراء التراث الموسيقي بالفضاء المغاربي".

وقد جاء هذا البحث في مجموعة من العناصر؛ فكانت البداية بإثارة إشكالية تبلور التراث الموسيقي الأندلسي، ثمّ التعرّيج على مكانة الموسيقى في المجتمع الأندلسي، دون إغفال التطرّق لمسألة حضور هذا التراث الموسيقي بالفضاء المغاربي؛ باعتباره سابقا لزمان هجرة الأندلسيين ولو بشكلٍ مبدئيّ، ليأتي الحديث عن الهجرة الأندلسية إلى الفضاء المغاربي؛ كمؤشّر لعملية ثقافية واسعة في مجالات مُختلفة، ثم مناقشة خلفيات اعتبار التراث الموسيقي الأندلسي كأحد أبرز مجالات التأثير في الثقافة المغاربية، متناولين

خصوصياته وعوامل انتشاره بالفضاء المغربي، لِيُتَوَجَّ هذا البحث بخاتمة تضمّنت مجموعة من التّائّج التي أمكن رصدها، من خلال مجموعة العناصر التي تمّ استعراضها ضمن ثنايا البحث المشار إليه.

1- إشكالية تبلور التّراث الموسيقي الأندلسي: لاشكّ أنّ التّراث الموسيقي الأندلسي لا يُمكن حصره ضمن نمط موسيقي واحد مُحدّد المعالم، إنّما هو عبارة عن منظومة كبرى من الطّبوع الموسيقية التي تنطوي على زخم في بنيتها وتشعب في عناصرها، وبرغم هذه السّمة المُشار إليها؛ التي اتّصف بها التّراث الموسيقي الأندلسي، فإنّ ذلك لا يُعدّ مُبرراً يبعث على الاعتقاد بأنّ هذا التّراث الموسيقي قد نشأ بشكل مُستقلّ أو مُتفرّد، وفي معزل عن حركة التّأثير والتأثر المُتبادلة التي يُفرزها الاحتكاك مع أفراد أو فئات اجتماعية وافدة من فضاءات جغرافية أخرى؛ إذ تضع الدّراسات المُهمّة بموضوع الموسيقى في الأندلس على قلّتها هذه القضية ضمن إطار التّساؤل.

غير أنّ هذا الإشكال المعرفي المطروح بخصوص تبلور التّراث الموسيقي الأندلسي يتّسم بجملة من المصاعب ذات الصّلة بضالّة الكتابات في هذا الشّأن، حيث "...لا يُستغرب أن يكون ما نعرفه عن تاريخ الموسيقى الأندلسية في بواكيرها أشبه بالعدم، إذ لا يمكن الوصول إلى أجوبة مُحدّدة عن عدد من المسائل بالأساس، فيما يخص تطوّر تلك الموسيقى في القرن الثّاني الهجري الثّامن الميلادي، بل إلى افتراضات وحسب"¹، غير أنّ محاولة الإجابة عن كيفية تشكّل هذا التّراث الموسيقي ضمن سياق حركة التّلقّي زمن الفتح وما بعده، من حيث عناصره الثّابتة والمتغيرة؛ حتى تبلورت معلّمه الكبرى واتّضحت الملامح الأساسية التي تميّزه تبقى قائمة.

فاحتمال تأثير الوافدين إلى الأندلس زمن الفتح وما بعده؛ سواء من العرب أو البربر، في ثقافة مجتمع المنطقة التي حلّوا بها في مختلف الجوانب، بما فيها التّراث الغنائي والموسيقي برغم ضبابيته تبقى واردة، وقد أشار التّيفاشي (ت1253هـ/ 651م) إلى ما يمكن اعتباره حركة تأثير إيجابية أخذت تعرف طريقها إلى المنظومة الغنائية والموسيقية بالأندلس ضمن مسار

1- رايت أوين- الموسيقى في الأندلس- ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس- ج1- ترجمة عبد الواحد لؤلؤة- تحرير سلى الخضراء الجيوسي- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط2- 1999- ص 803.

تاريخي تصاعدي؛ حيث ساهمت تلك الحركة في تطعيم المنظومة الغنائية والموسيقية بالأندلس وإكسابها خصائص اتّسمت بالثراء والتنوع، إذ يقول "كان غناؤهم إمّا بطريقة النّصاري، وإمّا بطريقة حُدّة العرب، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه، إلى أن تأثّلت الدّولة الأموية... فوفد عليه من المشرق ومن إفريقية من يُحسن غناء التّلاحين المدنيّة، فأخذ النّاس عنهم..."¹.

ولذا فإنّ الإقرار بحدوث تأثيرات متعدّدة؛ من حيث مَشاربها الثّقافيّة وبيئاتها الجغرافيّة في تشكيل التّراث الموسيقي الأندلسي، تبقى من أهمّ الفرضيّات التي يتبنّاها كثير من المهتمّين بالشّأن الموسيقي، إذ ليس من المستغرب لدى هؤلاء المهتمّين وفق هذا الافتراض، أن يكون التّراث الموسيقي الأندلسي؛ قد "...تشكّل من خلال تفاعل عدد كبير من الرّوافد المتعدّدة، الإيبيرية المحليّة والعربيّة والأمازيغيّة..."²، والمنطق التّاريخي يستوعب إمكانيّة وقوع ذلك دون أدنى شك، على اعتبار أنّ المتخصّصين في مجال الموسيقى؛ يعتبرون العالم المتوسّطي "...هو الصّورة الحيّة لسلسلة لا متناهية من التّبادل والتغيّرات التي حدثت طوال سِتّة آلاف من السّنين من تاريخه، وهو أيضًا المكان الذي تعايشّت فيه ثقافات موسيقيّة عرفت كيف تحتفظ بهويّتها مع التفتّح على تأثيرات الآخر"³.

2- مكانة الموسيقى في المجتمع الأندلسي: تقتضي منّا عمليّة البحث في موضوع إسهامات المهاجرين الأندلسيين في إثراء التّراث الموسيقي بالفضاء المغاربي؛ من النّاحية المنهجية الإشارة إلى الفضاء الأصلي الذي أفرز تلك التّأثيرات المتعلّقة بمجال الموسيقى، والتي ارتبطت بشكّل أساسيّ بعمليّة الهجرة، وضمن هذا السّياق يبدو من غير الممكن إغفال مسألة جوهرية ذات صلة بالموضوع، تتعلّق في المقام الأوّل بمكانة وأهميّة الموسيقى في المجتمع الأندلسي⁴، والجدير بالإشارة أنّ الممارسة الموسيقية لا يمكن اعتبارها بأيّ حال مثل باقي الممارسات الثّقافيّة والاجتماعيّة العادية، بل هي مؤشّر قويّ يدلّ بوضوح على حالة

1- التّيفاشي أحمد بن يوسف- متعة الأسماع في علم السّماع- تحقيق رشيد السّلامي- منشورات المجمع التّونسي للعلوم والآداب والفنون- تونس- ط1- 2019- ص 132.

2- الكوخي محمّد- سؤال الهوية في شمال إفريقيا- التعدّد والانصهار في واقع الإنسان واللّغة والثّقافة والتّاريخ- إفريقيا المشرق- الدّار البيضاء- 2014- ص 237.

3- سارنيكيا باولو- الموسيقى الشّعبية والموسيقى الرّاقية- ترجمة أحمد الصّمعي- منشورات زرياب- الجزائر- ط2- 2006- ص 9.

4- إنّ استعراض مكانة الموسيقى في المجتمع الأندلسي ضمن هذا العنصر ما هي إلّا مجرد توطئة للبحث؛ بغرض تكوين صورة عامّة، وبالتالي لن يتمّ الحديث عن الملامح الكبرى للموسيقى في المجتمع الأندلسي من حيث رّوادها وخصوصيّاتها ومراحلها الزّمنيّة، تفاديا للخروج عن أهداف هذا البحث المتمثّلة في "تدقيق مجالات الإسهام الموسيقي للمهاجرين الأندلسيين بالفضاء المغاربي وتوضيح لآثاره".

الرّفاه والتمدّن والرّقي الحضاري، ولذا فقد عدّها ابن خلدون (ت808هـ/1432م) من أمّهات الصّنائع، مُدرّجا إيّاها ضمن الصّنائع الشّريفة¹، حيث اعتبر أنّ هذه الأخيرة تحدّث "...في العمران إذا توقّروا وتجاوز حدّ الضّروري إلى الحاجي ثمّ إلى الكمالي..."².

وإذا كان السّعي إلى بناء صورة مُتكاملة عن واقع الموسيقى في المجتمع الأندلسي يُلْقُه بعض الغموض والضّبابية، كونه محفوفٌ بجملة من المطبّات والمزالق المرتبطة بأسباب تاريخيّة موضوعيّة؛ كما أشرنا إلى ذلك سابقا، فإنّ هذا لا ينفك إمكانيّة الحديث عن المكانة التي احتلّها الموسيقى في حياة الأندلسيين، كما لا ينفك إمكانيّة الإشارة إلى بعض التّماذج البارزة ممّن عُرِفوا بأنهم أساتذة للموسيقى والغناء بالأندلس؛ الذين كانوا مَوْضِعَ إشادة عبر مختلف الكتابات وكذا الدّراسات والأبحاث³، نظير ما تركوه من بصماتٍ قويّة في هذا المجال.

وعلى اعتبار أنّه من المتعذّر الإشارة إلى جميع الأسماء الكبيرة التي تركت بصماتها في صقل وبلورة التّراث الموسيقي الأندلسي، بفعل تفاوت درجات مساهماتها، وكذا تباين الزّوايا التي تجلّت فيها تلك البصمات والإسهامات، فإنّ الكتابات حول هذا الموضوع أجمعت على الإشادة بعلمّين كبيرين في هذا المجال، هما زرياب (ت238هـ/852م) كمعلّم في الموسيقى وابن باجة (ت533هـ/1139م) كفيلسوف ومنظرٍ؛ أدخل رؤى وتحسينات غير مسبوقة في هذا المجال، إذ "...ينطوي صيت زرياب بوصفه مُعلّما اشتهر بتطوير طرائق جديدة في التّمرين الصّوتي، على أنّه كان يُشجّع الإقبال على التعلّم، وبذلك يزيد في نشر التّراث إلى أبعد من الحدود المباشرة لدائرة الموسيقى نفسه"⁴.

ولعلّ أبلغ وصف لإسهامات زرياب؛ ذلك الذي أورده التّيفاشي، معتبرا أنّه "...جاء بما لم تعهده الأسماع، واتّخذت طريقته مسلكا ونُسبي غيرها..."⁵، كما يذهب ابن خلدون إلى تأكيد

1- تجدرُ الإشارة أنّ ابن خلدون لم يذكر الموسيقى في مقدّمته إلا ضمّنيا واستعاض عنها بلفظ الغناء، أنظر:

- ابن خلدون- المقدّمة- الفصل الثّالث والعشرون في الإشارة إلى أمّهات الصّنائع- ضبط وشرح وتقديم محمّد الإسكندراني- دار الكتاب العربي- بيروت- 2004- صص375-376.

2- المصدر نفسه- ص394.

3- بخصوص أشهر من ألف في مجال الغناء والموسيقى وكذا أشهر المغنّين بالأندلس أيضا أنظر:

- المهدي صالح- الموسيقى العربيّة تاريخها وأدبها- الدّار التّونسيّة للنّشر- تونس- 1979- صص81-99.

4- رايت أوين- المرجع السّابق- ص809.

5- التّيفاشي- المصدر السّابق- ص301.

انبعث زخم الغناء والموسيقى بالأندلس، مُشيراً في ذلك إلى زرياب، قائلاً "...فأورث- يقصد زرياب- بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها بإشبيلية بحر زاجر..."¹، كما شكّلت مساهمات ابن باجة علامة فارقة في تاريخ مسار التراث الموسيقي الأندلسي، على اعتبار أن "أسلوب زرياب بقي سائداً...حتى جاءت مرحلة جديدة حاسمة من التداخل الثقافي قام فيها ابن باجة بدمج غناء النَّصاري بغناء المشرق، واخترع طريقة لا توجد إلا بالأندلس"²، ولا شك أن هذا الرأي يجد سنداً له فيما ذكره التيفاشي عن ابن باجة؛ كونه "...هذب الاستهلال والعمل، ومزج غناء النَّصاري بغناء المشرق، واخترع طريقة لا توجد إلا بالأندلس، مال إليها طبع أهلها فرفضوا ما سواها"³.

أما عن تفاعل الأندلسيين مع الممارسة الموسيقية، فإن الدراسات والأبحاث التي تناولت الحياة الثقافية والاجتماعية للأندلسيين؛ تشير إلى المكانة المتميزة التي شغلها الموسيقى لديهم، حيث "كانت العناية بالموسيقى شديدة بالأندلس، وكان الشغف بها قوياً في كل المستويات، وفي جميع الأوساط من قمة السلم الاجتماعي إلى أسفله"⁴، ولا شك أن شغف الأندلسيين بالموسيقى والتفنن بالغناء لدى عامة الناس، إنما مرده إلى التأثير الذي مارسه خاصتهم، بدليل أن الكتابات التاريخية تذكر اقتران الموسيقى لديهم بالفلسفة والطب؛ إذ "لم تكن الموسيقى لديهم فناً وحسب، بل كانت أيضاً علماً مُتمماً للفلسفة والطب"⁵.

وإذا كان تصفح الدراسات والأبحاث ذات الصلة بالتاريخ الثقافي والاجتماعي للأندلسيين يثري بمعلومات وشذرات عن الموسيقى والغناء في المجتمع الأندلسي؛ تبلغ درجة التناقض أحيانا والمبالغة أحيانا أخرى، فإن ذلك مرده إلى أسباب ذات صلة بهلامية الممارسة الموسيقية، باعتبارها ممارسة لامادية، ولعل ما يجب التنبيه إليه في هذا الإطار حسب رأي المختصين في تاريخ الموسيقى بشكل عام والموسيقى الأندلسية بوجه خاص، أنه من المبالغة رصد الواقع الفعلي لتلك الموسيقى من جميع أوجهه وجوانبه؛ ضمن سياقها التاريخي بالشكل الذي كانت عليه "...إذ يجب التسليم منذ البدء بأن المشهد محكوم بالحقيقة

1- ابن خلدون- المصدر السابق- ص396.

2- رايت أوين- المرجع السابق- ص 816.

4- التيفاشي- المصدر السابق- ص 301.

4- الطالبي محمّد- الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين- مجلة الأصالة- وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية- الجزائر-1975- عدد 26- ص 71.

5- المرجع نفسه- ص 71.

الدّامغة بأنّ الموسيقى نفسها لا يمكن استعادتها إلى الحياة"¹، وبرغم وجود تقاليد متوارثة "فإنّه من العبث أن ننظر إلى تلك التّقاليد الموسيقية كما لو كانت محفوظة وراء زجاج معرض"².

3- حضور التّراث الموسيقي الأندلسي بالفضاء المغربي سابق لزمان الهجرة: لعلّ من بين القضايا التاريخية الشّائعة والمُتداولة بين عدد من الباحثين؛ اعتبار هجرة الأندلسيين الطوعية أو تهجيرهم قسرا إلى الفضاء المغربي، بعد اشتداد ما يُسمّى تاريخيًا بحركة الاسترداد، -والتي كانت سببا في انكماش سيادة الإمارات الإسلامية وضمحلّها، ممّا قوّض فرص حماية رعاياها، سببا مباشرا في إحداث هؤلاء المهاجرين لتأثيرات مباشرة وغير مباشرة في مختلف مجالات الحياة، بما في ذلك مجال الموسيقى بوجه خاصّ، غير أنّ هذا الطّرح الشّائع منافٍ للحقيقة التاريخية، والتي تذهب إلى اعتبار حضور التّراث الموسيقي الأندلسي بالفضاء المغربي سابق لزمان الهجرة بزمان طويل.

فبحكم حيوية العلاقات بين المنطقتين، والتي غدّتها حركة واسعة من التّبادلات في شتى المجالات، كما أفرزت عملية تأثير وتأثر مُتبادلة، فقد غزت "...أمواج الألحان الأندلسية إفريقية قبل أن تغزوها أمواج اللّاجئين"³، غير أنّ هذا الحضور قد انحصر ضمن فضاءات جغرافية ضيقة، كما اقتصر على فئات اجتماعية محدودة، حيث كان هذا الحضور المبدئي للتّراث الموسيقي الأندلسي بمثابة أرضية مهّدت لاكتساح التّراث الموسيقي والغنائي الأندلسي مع بداية ولوج المهاجرين الأندلسيين تباعا إلى المنطقة المغربية وتوزّعهم على فضاءها الجغرافي واحتكاكهم بساكنتها.

4- الهجرة الأندلسية إلى الفضاء المغربي كمؤشّر لعملية تّثاقفٍ واسعةٍ في مجالات مختلفة: لا شك أنّ من ضمن أبرز المحطّات التاريخية التي تركت بصمات قويّة في ثقافة المجتمعات المغربية؛ من خلال المساهمة في تطعيمها ببعض العناصر المادية واللامادية؛ عبر عملية التّأثير والتّأثر المتبادلة بالثقافات الوافدة، قد تمثّلت في قدوم ساكني الأندلس ضمن هجرات امتدّت على مراحل، وأضحت تتزايد شيئا فشيئا على "...اثر سقوط حواضر الأندلس الكبرى في

1- رايت أوين- المرجع السابق- ص 803.

2- رايت أوين- المرجع السابق- ص 803.

3- الطّالبي محمّد- المرجع السابق- ص 72.

أيدي النصارى الواحدة تلوى الأخرى..."¹، حيث استقر هؤلاء المهاجرين في عدد من المدن، على مستوى كامل بلدان المنطقة المغاربية، ناقلين معهم موروثهم الثقافي وتقاليدهم العريقة، خاصة ما تعلق بالنشاط الجري، وبعض الأشكال من الممارسات الثقافية ذات البعد اللامادي.

وقد أفضى الامتزاج والانصهار الثقافي الذي تمّ خلال مرحلة هجرة الأندلسيين، إلى تشكيل بعض معالم الهوية المغاربية المعاصرة، وتطعيمها بجملة من العناصر والممارسات الثقافية؛ والتي كان من ضمنها التراث الموسيقي، إذ "...كان لهم تأثير ثقافي وسياسي كبير جداً يتجاوز حجمهم السكاني"²، وهو ما يُعبّر عنه من منظور الأنثروبولوجيا بالتثاقف (Acculturation)؛ حيث يُستعمل هذا المصطلح الأخير للدلالة والإخبار "عن آثار تماسٍ ثقافي"³، هذا التماس والامتزاج الثقافي الذي يُعرف بالتثاقف؛ إنما يتم عادة بين الشعوب من ثقافات مختلفة، وكذا بين مجموعات بشرية بفعل الاحتكاك والتلاق، بغض النظر عن عوامل هذا الاحتكاك وأسبابه.⁴

5- التراث الموسيقي الأندلسي باعتباره أحد أبرز مجالات التأثير في الثقافة المغاربية: برغم أنّ المهاجرين الأندلسيين إلى المنطقة المغاربية وفق ما تذكّره الكتابات التاريخية، لم يتركوا جانباً إلا وظهرت فيه بصماتهم وبرزت مساهماتهم، بفعل ما عُرفوا به "... من مهارات ومعارف تتجاوز ما كان مُتداولاً لدى السكان في المنطقة..."⁵، إذ مارسوا تأثيرات في شتى مجالات الحياة، غير أنّ أبرز تأثير وأبلغه ذلك الذي تمّ في الجانب الثقافي؛ وعلى وجه الخصوص ما تعلق بالممارسة الموسيقية، حيث يذهب المؤرخ محمد الطالبي إلى تأكيد هذا الرأي بالقول: "ولعلّ أعمق تأثير وأخلّده هو الذي حدث في الميدان الموسيقي"⁶، بحكم أنّ هذا التأثير لا تزال مظاهره وعناصره مُتداولة وحاضرة بجلاء في الثقافة المغاربية في الزمن الراهن، والتي "ما تزال شاهدة إلى اليوم على عمقه وغناه".⁷

وإذا كان حضور هذا التراث الغنائي والموسيقي الأندلسي بالفضاء المغاربي سابق لزمان هجرتهم ولكن بشكل بسيط⁸، فإنّ الهجرة كانت سبباً مباشراً في تعميق حضور هذا التراث وانتشاره، حيث أخذ هذا التراث الموسيقي والغنائي يعرف توسّعاً وازدهاراً خاصة "...بعد قدوم أكبر عدد من

1- سعيدوني ناصر الدّين- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- العهد العثماني- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1984- ص 129.

2- الكوي محمّد- المرجع السابق- ص 230.

3- كوش دنيس- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية- ترجمة منير السعيداني- مراجعة الطاهر لتيب- المنظمة العربية للترجمة- بيروت- ط1- 2007- ص 93.

4- للتعمق أكثر فيما يتصل بمصطلح التثاقف (Acculturation) أنظر:

-Bonte pierre et Izard Michel- Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie- Puf- Paris- 2^{ème} éd- 2002- p1-2.

5- الكوي محمّد- المرجع السابق- ص 231.

6- الطالبي محمّد- المرجع السابق- ص 71.

7- الكوي محمّد- المرجع السابق- ص 237.

8- أنظر العنصر الثالث من هذا البحث بعنوان "حضور التراث الموسيقي الأندلسي بالفضاء المغاربي سابق لزمان الهجرة".

اللاجئين الأندلسيين العرب بمناسبة سقوط اشبيلية عاصمة الفن ثم غرناطة...¹، وقد تحدّث ابن خلدون عن ذلك بالقول "...وتناقل منها بعد ذهاب غضايتها-يقصد ضهور الحضارة الأندلسية- إلى بلاد العُدوة بإفريقية والمغرب، وانقسم على أمصارها، وبها الآن منها صَبَابَةٌ على تراجع عمرائها وتناقص دولها"².

6- خصوصيات التراث الموسيقي الأندلسي: إذا كانت الدراسات الاجتماعية ترى أنّ أحد أقسام الثقافة الأساسية؛ هي ما يُعرف بالثقافة العالمية (Culture Savante)؛ التي ترمز إلى المعارف العلمية والفنية والأدبية للفرد داخل المجتمع، وهي من اختصاص النخبة المفكرة³، وتعبير آخر أنّها حkra على الخاصة من الناس، فإنّ الثقافة الشعبية تأتي كمقابل لها، وهذه الأخيرة تشمل فئات العامة⁴، ووفق هذا السياق؛ فإنّ التراث الموسيقي الأندلسي يكاد يندرج ضمن الممارسة الثقافية العالمية أكثر من اندراجه ضمن الممارسة الشعبية، إذ ينطوي هذا التراث على جملة من العناصر والبنى الإيقاعية ممّا يفرض على ممارسيه تعلّماً وتدرباً بغية اكتساب هذه الملكة.

كما أنّ هذا التراث الموسيقي عُرف أيضاً على أنّه تراثاً مدينيّاً بامتياز، فمنذ نشأته كان لصيقاً بالبيئات الحضرية، بل إنّه كان "...ومازال فناً حضريّاً يتبع الحضارة وازدهار العمران"⁵، وهو ما جعله يتميز بحضوره بشكل لافت لدى العائلات الحضرية، ولعلّ من خصوصيات هذا التراث الموسيقي أيضاً؛ أنّه يُعرف في المنطقة المغاربية في الزّمن الرّاهن تحت مُسمّيات مختلفة، إذ يُعرف "...في كل من ليبيا وتونس ومدينة قسنطينة بالجزائر باسم المألوف، وفي العاصمة الجزائرية باسم الصّناعة، وفي مدينة تلمسان الجزائرية بالطّرب الغرناطي، وفي المغرب يُسمّى باسم طرب الآلة أو الطّرب الغرناطي..."⁶.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هناك تمايزاً في ممارسة هذا التراث الموسيقي في الزّمن الرّاهن بين كل من المغرب والجزائر من جهة، ونظيرتهما تونس وليبيا؛ فبحكم انفتاح هذين البلدين- تونس وليبيا- على التراث الموسيقي للمشرق العربي، بفعل عاملي الجغرافيا والتّاريخ، فقد أضى ذلك التراث يميل في بنيته اللّحنية والإيقاعية بشكل أو بآخر إلى التراث الموسيقي لبلدان المشرق، في

1- المهدي صالح- المرجع السابق- ص 134.

2- ابن خلدون- المصدر السابق- ص396.

3-Bonnewitz patrice- la sociologie de Bourdieu- Puf- Paris- 2eme édits- 1997- p 15.

4- للمزيد من التوسّع فيما يتعلّق بمفهوم الثقافة الشعبية أنظر:

-عماد عبد الغني- سوسيولوجيا الثقافة-المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط1- 2006- ص137.

5- الطّالبي محمّد- المرجع السابق- ص 74.

6- الكوخي محمّد- المرجع السابق- ص 238.

حين أنّه ظلّ في كل من المغرب والجزائر مُنغلِقاً على ذاته محافظاً على بنيّته اللّحيّة والإيقاعيّة المورثة، برغم ما لأمسه من تحسينات.

7- عوامل انتشار التّراث الموسيقي الأندلسي بالفضاء المغاربي: إنّ انتقال التّراث الموسيقي الأندلسي إلى الفضاء المغاربي الذي كان بسبب هجرة الأندلسيين تبعاً إلى هذه المنطقة، بفعل سقوط حواضر الأندلس والتي كان آخرها سقوط غرناطة سنة 1492، لم يكن سبباً في انتشار هذا التّراث، وشتان بين الانتشار والانتقال، بل إنّ هناك عوامل اجتماعيّة وثقافيّة أخرى ساهمت في عمليّة انتشاره وذيوعه بين فئات المجتمع المغاربي وفي حواضره الكبرى بالتّحديد، حتى أضحى هذا التّراث الموسيقي مع مرور الزّمن يمثّل مظهرًا من مظاهر الثّقافة المغاربيّة في جانبها اللّاماديّ، بعدما أُضيفت له عناصر وتحسينات من الثّقافة المحليّة، وبرغم أنّ هذا التّراث الموسيقي لا يكاد يأخذ موضوعاً أو مجالاً واحداً بل تآرجح بين "...المديح النّبوي والغزل والخمريات ووصف الطّبيعة ومجالس الأنس والسّم" ¹، غير أنّه بالإمكان حصر عوامل انتشاره برغم تعدّدها في عاملين أساسيين؛ هما:

7-1- التّأثير الذي مارسه العائلات والفئات المغاربيّة من الخاصّة؛ لعلّ من ضمن العوامل القويّة التي مهّدت لانتشار هذا التّراث الموسيقي وذيوعه، إنّما تعود في المقام الأوّل إلى التّأثير المعنوي الذي مثّله هذا الأخير على الفئات الخاصّة والعائلات الأرستقراطيّة المحليّة في المدن المغاربيّة، على اعتبار أنّ تفوّق الأندلسيين وبراعتهم في مجال الموسيقى بشكل لافت للانتباه، لم يُضاهيه ما كان موجوداً في الفضاء المغاربي من براعة وتفنّن في هذا المجال؛ قد أحدث نوعاً من التّماهي بهم لدى الخاصّة من النّاس، وأفضى إلى مسعى تقليد مجالسهم وصنعتهم. حيث عمّلت هذه الأخيرة -العائلات والفئات المغاربيّة من الخاصّة- على استقطاب هذا التّراث الموسيقي والتّرويج له ضمن أعيادهم وممارساتهم الاحتفاليّة، ذلك أنّ تلك الطّبقات والفئات "...كانت شديدة الإعجاب بالحضارة الأندلسيّة" ²، وهو ما ضمّن رواجه بين العامّة من النّاس بالحواضر المغاربيّة، ولاشكّ أنّ اقتداء العامّة بالخاصّة لا يرفضه منطق التّاريخ بحكم أنّ "المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده" ³.

1- المرجع نفسه- ص 238.

2- الطّالبي محمّد- المرجع السابق- ص 73.

3- ابن خلدون- المصدر السابق- ص 146.

2-7- حضور الحمولة الدينية في بعض مواضيع التراث الموسيقي الأندلسي: لا شك أنّ من ضمن العوامل الحاسمة التي ضمنت رواج التراث الموسيقي الأندلسي بالفضاء المغربي، انطواء هذا التراث الموسيقي على جملة من العناصر التي تنزع نحو التّغني بالرموز الدينية، وبسيرة النّبي صليّ الله عليه وسلّم ومواقفه، والتي أضفت عليه شهرة ومكانة لدى خاصّة المجتمع وعامّتهم أيضاً، ولذا فقد "...ذاع حتى داخل المجتمعات الصّوفية"¹، على اعتبار أنّ الظروف التي صاحبت ولوج المهاجرين الأندلسيين إلى الفضاء المغربي؛ ميّزها تراجع في المدّ الحضاري للثقافة العربيّة الإسلاميّة، التي بدأت تعرف الانحسار ويسري إليها الضّمور، وواكبها بالمقابل حراكاً تصاعديّاً في الممارسة الصّوفية؛ التي أخذت تُعرف طريقها إلى الانتشار عبر كامل الفضاء المغربي²، كردّ فعل على الإخفاقات المتتالية التي هزّت كيان المسلمين في الغرب الإسلامي وعصفت بحضارتهم. إذ "...حمل هذا النمط الموسيقي حمولة دينيّة، ممّا أكسبه نوعاً من الاحترام والشّعبيّة"³، وقد ساهم انتشار الممارسة الصّوفية بالمنطقة المغاربية خلال هذه المرحلة؛ في اقتباس بعض عناصر هذا التراث الموسيقي وتوظيفها ضمن المدائح الدينية، وكذا ضمن ما يُسمّى لدى المتصوّفة بالسماع⁴، حيث "ازدهر الإنشاد كوسيلة للسمو الزوّجي ضمن التيار الصّوفي"⁵، ولذا فقد ساهمت الطّرق الصّوفية بالمنطقة المغاربية هي الأخرى في التّرويج لبعض عناصر هذا التراث الموسيقي، وفق ما يَخذُم الممارسة الصّوفية، لأنّ "...مجال الإنشاد الديني والصّوفي هو من أنشط وأثرى المجالات"⁶، وهو ما حدث في ليبيا على وجه الخصوص، ذلك أنّ "...موسيقى المألوف استمرّت وانتشرت في ليبيا أساساً بفضل الطّرق الصّوفية"⁷.

كما أنّ فن الموشح هو الآخر الذي يُعدّ من صميم التراث الموسيقي الأندلسي نظراً لتقاطعه مع فن المديح الديني، قد انتشر هو الآخر في بعض بيوتات رجال الدّين بالفضاء المغربي، إذ مُورس في مناسبات دينيّة مختلفة، وهو ما جعل المختصّين في تاريخ الموسيقى المتوسّطيّة يميلون إلى التّأكيد على أنّ "الأندلس تظهر كأحد أهمّ المراكز في إبداع وفي نشر الشّعْر الصّوفي في شكلٍ مقطعيّ مُعد

1- الطّالبي محمّد- المرجع السابق- ص 74.

2- بخصوص ظروف وملابسات نشأة الصّوف بالفضاء المغربي أنظر: ساعد خميسي- الفقه والتصوّف- مجلّة سيرتا- منشورات جامعة منتوري قسنطينة- السّنة السّابعة- العدد الحادي عشر- ماي 1998- ص 19.

3- الكوخي محمّد- المرجع السابق- ص 237.

4- بخصوص موضوع السماع أنظر: الحراق محمّد التّهامي- موسيقى المواجه- مقاربات في فن السماع الصّوفي المغربي- تقديم عبد الإله بن عرفة- منشورات الزّمن- الدّار البيضاء- 2010.

5- سارنيكيا باولو- المرجع السابق- ص 50.

1- المرجع نفسه- ص 40.

7- الكوخي محمّد- المرجع السابق- ص 239.

للغناء كالموشحات..."¹، والمعروف أنّ الأندلسيين حين هاجروا إلى المنطقة المغاربية "...كانوا ولعين بنظم الموشحات وترديد المدايح..."²، وهو ما ضمن انتشارا واسعا لهذا النمط من التراث الموسيقي بالمنطقة المغاربية.

الخاتمة: في نهاية هذا البحث الذي جاء بعنوان: "إسهامات المهاجرين الأندلسيين في إثراء التراث الموسيقي بالفضاء المغاربي"، يمكن أن نخلص إلى مجموعة من النتائج ندرجها على النحو الآتي:

- لقد نجحت الهجرة الأندلسية في تطعيم النسيج الثقافي والاجتماعي بالفضاء المغاربي بجملة من العناصر التي أضحت من صميم مُحدّدات الهوية المغاربية في الزمن الراهن، لعلّ من أبرزها التراث الموسيقي والغنائي.

- إنّ التدقيق في الدراسات والأبحاث ذات الصلة بالتاريخ الثقافي والاجتماعي المغاربي: تضع الباحث أمام جملة من المعطيات التي تُفصح عن مغالطات شائعة لدى عدد من الباحثين لعلّ من أهمّها: الاعتقاد بأنّ انتقال التراث الموسيقي الأندلسي قد ارتبط بهجرة الأندلسيين وحسب، وذلك بإغفال أهمية الحركة الثقافية السابقة لزمان الهجرة في التمهيد لانتقال هذا التراث ولو بشكل محدود. إنّ السعي إلى إبراز التأثيرات والإسهامات المباشرة وغير المباشرة التي أفرزتها تلك الهجرة الأندلسية إلى الفضاء المغاربي على مستوى التراث الموسيقي المغاربي بشكل عام، ينطوي على جملة من المصاعب التي تحول دون الإلمام بحقيقة تلك الإسهامات وأهميتها وتحديد مستوى الإضافة المُحقّقة في مجال التراث الموسيقي المغاربي، من حيث العناصر الثابتة والمتغيّرة ضمن سياق تلك الإسهامات.

- يفتح البحث في إسهامات المهاجرين الأندلسيين إلى الفضاء المغاربي: في مجال التراث الموسيقي، شهية الباحث للولوج إلى جملة من المحاور الأخرى ذات الصلة بهذا الموضوع الحيوي، والتي تحتاج إلى بحث مستقلّ بذاته، وهي إسهامات ترتبط بالطبوع الموسيقية بشكل عام، وما رافقها من عناصر ذات صلة مباشرة بهذا المجال، وعلى رأسها منظومة الآلات الطربية والموسيقية المصاحبة لها.

1- سارنيكيا باولو- المرجع السابق- ص 43.

2- سعيدوني ناصر الدين- المرجع السابق- ص 144.